

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد اقرايم البستاني

وقد يكون من الاثنا. ضحايا لي سيل آبائهم
من حيث لا يدرون

الفصل التاسع

مهاب مجرب (تابع)

- وبعد ان التقى الامير ذاك النداء ، ركض جواده هاجماً على صاحب العلم فارداه بضربة واحدة . فتراجع عند ذلك حماة العلم اذ رأوه يهوي الى الحضيض . فحاول الملا اسماعيل ارجاءهم عبثاً ، واذا رأى موج عسكرنا الزاحف لا يرده ماجز ولا توقفه عقبة ، اختار الحياة على العزّ فأوى عنان جواد ، واطلقه في ذلك المرج الفسيح . اما الامير فكان فؤاده ينلني حتماً على الملا اسماعيل لما ظهر من خيانتة في تركه نصرته رجال الجزائر وانصرافه الى خدمة عبد الله باشا ، ولم يشأ له النجاة فاسرع على اثره ونحن وراءه . ولكننا في سرعتنا تلك لم نتنبه الى رجل من السدر كان مختبئاً وراء صخرة مصروباً بندقيته الى رأس الامير فجمجه ، حتى اذا قرب منه اطلقها وهرب .

فاخترق الرحاصة الكوفية ، واذا بذلك الرأس المحجوب يتقلب الى الورا . فتلقيناه على صدورنا وارجمناه الى المعسكر ، فقلنا الجرح البليغ وضدناه على قدر الامكان ، وحملنا الامير الى بيدران . فطاش يوماً واحداً استعاد صوابه بضع ساعات في اثنائه . فأوصى الت سعدى بيدور وبك ، وترك لكما كل امراله بعد ان برأ ذمة الامير بشير بما له عليه من المال . واوصى لكنيسة

الضيعة وللفقراء . بعشرة اكياس . ثم ودّعنا واوصانا جميعاً بالصبر ، والانصراف الى ما به خير البلاد . وتوفي وفاة القديسين بين ايدي الحورى يوسف .
وفي اليوم الثاني اقيمت له مناحة لم اشهد مثلها في حياتي . ولا اقوى على ان اصفها لك . . .

وكانت الهبرات قد استبقت الى عيني فرحات فنته عن متابعة الحديث . واجابتها عبرات غانم ، فصرفا عدة دقائق لا يسمع بينهما الا اصوات التشيخ . حتى تجلد غانم فقال :
- والقاتل ؟

- قبض عليه في الليلة نفسها في وادي المجدل ، وكان رجلاً من النكدية . فقتل حالاً مع كل من وقع في ايدي رجالنا من السكر . ولماً لم يشفوا غليلهم من الاعداء ، مروا على قرية البترون ، في الزبداني ، فأحرقوها بكاملها ، وعادوا الى قب الياس ، فالى بعدوان وكلّمهم بترحم على الامير جيهاه .
واذ عرف الامير بشير ان قاتل الامير جيهاه احد رجال النكدية ، وكان صدره يتدفق حقداً عليهم لما اظهروه من اساليب الخداع ، وانواع العداوة له ، اقم ، في مناحة الامير جيهاه ، بالله العظيم وبتربة الفقيد الكبير ، انه يقتل خمسة عشر شيخاً من النكدية .
فعنى غانم رأسه متأسفاً ، وقلب شقيه يائساً ، وقال بصوت يكاد يكون لهائاً :

- وما نفْعُ الانتقام ؟ . . .

وبعد قدة مسكون لم يجسر فرحات على قطعها ، تحول غانم الى احدى زوايا غرفته ، فلخرج من صندوق قديم ربع ورق ، وقلداً ، ودواة مستطيلة . وشرع يخط كتاب تغزية الى بدور . فلم يقوَ الا على كتابة ثلاثة اسطر ضمنها ، بكل بساطة ، بعض ما يشعر به من الاسى الضارب الى اليأس ، ومن الحزن الذي لا يخفقه سلوان . فكانت كاهاته اشبه بلوعة النعي منها بيلم التغزية . ثم تناول المكتوب فرحات وقتم :
- الى الاسبرع القادم !

فردعه هذا قائلاً :

— ان شاء الله !

* * *

مرّت ساعات طويلة على غائم وهو في جلسته لا يتقلقل ، حيناً يهوي برأسه على مسند الديوان ، وحيناً يحمل بين يديه . وافكاره نائرة مضطربة كالامواج المتلاطمة تحت اسوار القلعة تُسمع زفيرها الهائج من خلال النوافذ ؛ وخواطره متشعبة متكثرة كالبروق في الليلة الهاصقة تنشب من الاقنق الى الاقنق فلا تلبث ان تتطّلع وتتلاشى في طيأت الغيوم . تارة يفرغ الى ما تركه المصائب في قلبه من تشبث بالحياة ورغبة في مغالبة الدهر ، فيكن الى الامل بفرج قريب ؛ وطوراً يمدق الى الخطب فتسجل له الرزينة بكل ما فيها من هول وروعة ، فتضحل آماله ويتسلم الى اليأس . يذكر حيناً تلك الأوقات التي كان يصرفها في حمى جذه العزيز ، او يقضيها في صحبة عمه الامير جهجاه ، او في محادثة بدور الملوّزة غبطة وسروراً ، فينبسط جبينه المتجمد قبل الاوان ، ويفترق فتره الذي ختمته الاحزان بمرارة الاسى ، ويلسع في عينيه الجامدتين قبس الحياة . ولكن سرعان ما كانت تظهر الحقيقة فتبدد اوهام ذلك الخيال ، كما تتبدد قطع الغمام اذ تنفخ فيها هوج الرياح فتندرها هباءً مشوراً . فينتبه واذا بجذده المحبوب مضطجع في ضريمه ، واذا بعمه العزيز مضرج بدمه ، واذا يدور ساجدة بدموعها ، واذا بتلك الايام السعيدة تمرّ سراعاً وتبدل بها ايام التعاسة والشقاء .

ساعات طويلة مرّت عليه وهو في تلك الحال . فلم يشعر بالظلام يحتلّ غرفته ، وبالليل يجلب كل شيء . امام عينيه ، وبالنعاس يلفّ جفونه فيخفق برأسه على المسند . وكانت تلك الصدمات المتعددة قد انهكت منه ذلك الجسم الناحل ، واتبعت ذلك القلب الحساس ، فنام نوماً عميقاً تقطعه الاحلام السوداء ، حتى نفذت اشعة الشمس خلال النوافذ ، فاقاق يستعيد تذكارات اليوم السابق ويا لها تذكارات مؤلمة !

* * *

على ان في القلوب الكبيرة مستودعات من الصبر لا تفتح إلا في اشد المصائب ، وكنوزاً من التجلد لا تظهر قيمتها الغالية إلا في اهول الخطوب . وان في النفوس الكريمة عواطف تهيب بها أن الرزينة تترفها من حضيض الاستكانة الى اوج الأنفة ، فتبدو شامخة ممتردة ، منصرفة عن اثاره الشفقة في قلوب الناس ، تفضل ضبط الحزن القاتل في حنايا الضلوع على الظهور بظهور الضعف وطلب التعزية .

هذا ما اهاب بنظمه اذ انتبه لحالته في صباح اليوم الثاني . وزاده رغبة عن الشفقة انه غريب في ديار لا يتم سكانها به ولا بما يصيبه . فانف من الذل للدهر ، وشمخ على الرزينة ، فدفع الحزن الى اقصى قلبه ، ورد الدمع الى ما وراء جفونه . وخرج يجرول في سراي الباشا ، وعلى شفثيه ابتسامة ضئيلة ، وعلى حياها مظاهر عدم الاهتمام .

ولكنه لم يكن يخلو في الماء الى غرفته ، حتى تهيج به تلك التذكريات المؤلمة ، وقد ضبطها طول النهار ، فينفجر صدره بالأنات المتواصلة ، وتدفق اجفانه بالدموع المسترسلة . فيستسلم للحزن ، ويتحول ، بشريعة رد الفعل ، ذاك التجلد الجياري الى ضعف صياني لا يقوى معه على تهدئة عواطفه ، فيقتضي الليل في البكا والنحيب . . .

وكان ، في تلك الساعات المؤلمة ، يرتقب رجوع فرحات عسى يحمل اليه ما يبرد شيئاً من لوعاته ، فيلتهي مقدراً سير رسوله ساعة ف ساعة ، حاسباً انه قد يكون ترك بعذران في ساعة كذا ، فوصل الى جزين في كذا ، فتركها في كذا وهبط مرج بسري . . . الى آخر ما هنالك من التقديرات التي لم تكن تصح غالباً ، فكان يراجهها مجدداً ساثراً مع فرحات بالفكر من اضية الى ضيعة ، ومن جبل الى واد ، حتى كانت تبلغ منه التخيلات مبلغاً عظيماً ، فيتصور احياناً ان فرحات قد وصل ، فيهم بان يفتح له الباب ، فلا يسمع سوى صوت الريح تصفر من خلال الاقفال ، وهدير الموج يتصاعد من وراء الجدران . فيعود يانساً الى مضجعه ، مراجعاً تقديراته السابقة .

ولبت غانم بعد الأيام حتى كان فجر اليوم السابع ، وهو يوم الموعد ، فقام باكراً . ولم يجسر على الخروج مخافة ان يأتي فرحات فلا يراه ، فيتأخر عن سماع ما يعزبه وينشطه . فظل في غرفته يحسب الساعات الطويلة دون جدوى ، حتى كان الاصيل فصار بعد الدقائق ، وقلبه ينبض لكل حركة يسمها ، وعيناه ترفآن لكل شبح يتراى لهما عن بعد ولكن كأن الاقدار شامت معاكمة المسكين حتى في ابسط امانيه ، فانقضى ذلك النهار ، وانقضى ذلك الليل ، ولم يسمع حساً لفرحات .

وكذلك سرّ اليوم الثاني ، واليوم الثالث ، والرابع ، والخامس . وغانم يجدد آماله كل صباح فيلأشبه المساء . الى ان سرّ اسبوعان ، واذا به يسمع جلبة ، قبيل الفجر الاول . وكان طول الانتظار قد ارهف سمعه ، وحدد بصره ، فاطلّ من نافذته ، فرأى جيشاً من المساكين يدخل المدينة . فحدّق اليه لما لبث ان عرف ، من هيئة بعض جزوده وشاراتهم ، انه جيش الجزائر الذي ارسله لنصرة الامير بشير . فاستبشر اذ لم يعد يشك في قدوم فرحات . ولم يخطئ ظنه ، هذه المرّة ، فاسرّت دقائق حتى كان فرحات بين يديه . فصاح به ، والفرح يدافع الأسي في فواده :

- وكيف قوي قلبك على ان تتأخر اسبوعين ، وتتركتني في هذه الحالة دون شفقة ولا رحمة ! لقد قنطت من قدمك حتى صمت على ان ارجعك عندما تصل ، لانه لم يبق لي حاجة اليكم
فتبسم فرحات ابتسامة العطف ، وازحى جفونه ، ثم تناول يد ابن مولاه فقبلها معذراً ، وقال :

- المغر يا سيدي ! لم يكن هذا التأخر بارادتي ، وانت اخبر بقلب فرحات .
ولكنني أجبرت على السير مع عسكر الجزائر
- واي معنى لقدوم هذا المسكر ؟

- معناه ان سيدنا الامير بشير قد انتصر نهائياً فطهر البلاد من المناوئين .
ورّد الجيش الى الجزائر شاكرًا .

- وابن مقرّ الامير الآن ؟

